**المحاضرة التاسعة: الحلاج**

**أولا: من هو الحلاج ؟**

هو أبو المُغِيث الحُسين بن مَنْصُور الحَلاَّج [شاعر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B4%D8%A7%D8%B9%D8%B1) [صوفي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D9%88%D9%81%D9%8A%D8%A9) من شعراء [الدولة العباسية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%A7%D8%B3%D9%8A%D8%A9)، وُلد عام 858 م في قرية تدعى البيضاء في بلاد فارس -إيران حالياً- وهي منطقة كانت لا تزال تدين بالزردشتية أيام الدولة العباسية، ولذلك كانت عائلته زردشتية الأصل قبل أن يعتنق والده الإسلام وهو الأمر الذي جعل الحلاج متقناً للغة العربية على عكس الكثير من الشعراء الصوفيين المعاصرين له.

منذ صغره لم يكتف الحلاج بمجرد حفظ القرآن عن ظهر قلب، بل كان دائماً ما يندفع نحو فهم معاني كلماته العميقة والداخلية، الأمر الذي جعله ينجذب نحو المذهب الصوفي وهو لا يزال في سنّ الـ16 فقط.

أمضى الحلاج فترة شبابه في واسط الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة في العراق والتي كانت تعتبر أيضاً مركزاً مهماً للطائفة السنيّة، فتعلم فيها أصول الدين على المذهب الحنبلي.

بعد ذلك بدأت رحلة الحلاج بالتنقل، فذهب إلى تستر في خوزستان وتعرف فيها على سهل التستري الذي تعلم على يديه علوم القرآن. وخلال الفترة التي جسل فيها في تستر ألف الحلاج تفسيراً كاملاً للقرآن مرتبطاً بتأملاته الخاصة، واعتمد فيه على فكرة أنّ على الإنسان أن يبحث داخل نفسه ليدرك الله.

بعد ذلك اتجه الشاعر الصوفي نحو البصرة التي أعلن فيها تصوفه بشكل رسمي، فارتدى فيها خرقة التصوف، وبدأ بممارسة الطقوس الصوفية.

وفي عام 877، تزوج الحلاج من ابنة أبي يعقوب الأقطع البصري الذي كان أحد تلامذة المتصوف الجنيد البغدادي. ولم تكن الفترة التي جاء فيها الحلاج إلى البصرة مستقرة، فكانت حرب الزنج مشتعلة بين الدولة العباسية وبين عدد كبير من العبيد الذين تم استقدامهم من إفريقيا والذين يعمل جلّهم في معامل الملح وسط ظروف سيئة. وعلى الرغم من أنّ الكثير من شيعة البصرة كانوا إلى جانب ثورة العبيد ومن بينهم عائلة زوجته، فإن الحلاج قرر الابتعاد عن هذه الأحداث السياسية التي انتهت بمجازر واسعة ارتكبها العباسيون بحق العبيد.

ويقال إنّ سبب خروج الحلاج من البصرة هو موقفه الصارم بشأن العبيد الذين يعانون من أوضاع قاسية ولأنه دائماً ما كان يوجه المسؤولية نحو الدولة العباسية، فاتجه الشاعر الصوفي نحو مكّة من أجل الحج فأقام فيها عاماً كاملاً يمارس فيها الطقوس الصوفية.

وعندما عاد الشاعر الملقب بأبي المغيث إلى زوجته في البصرة، قرر بدء الجهر بآرائه وأفكاره الصوفية، حتى يقال إنه أصبح يتحدث بلسان الله.

في عام 913 اعتقل الشاعر الحلاج بأمر من المقتدر بالله، ووضع في السجن، وكان ينقل من سجن إلى آخر كل فترة بسبب عظاته التي كان يعطيها للسجناء، حتى وصل في نهاية المطاف إلى سجن السلطان، وبقي قيد المحاكمة مدة 9 سنوات، حتى حكم القاضي أبوعمر المالكي عليه بالقتل بحجة أنه كافر وملحد وزنديق ومشعوذ.

وعندما علم الشاعر الصوفي بأمر الحكم بإعدامه، أرسل خطاباً إلى الخليفة والقضاة قال لهم فيها: "ظهري حمى، ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتهموني بما يخالف عقيدتي ومذهبي السنة، ولي كتب في الوراقين تدل على سنتي، فالله الله في دمي".

لكنّ محاولته الأخيرة باءت بالفشل، ففي عام 922م، أخرج الحلاج نحو ساحة عامة في العاصمة بغداد، وجلد فيها ألف مرة، وصلب فيها حتى فارق الحياة، وفي اليوم التالي قطّعت أوصاله وأحرق جثمانه ونُثر في نهر دجلة.

**ثانيا: مؤلفاته**

ينبغي الإشارة إلى أن أكثر المؤلفات التي نسبت إليه هي: ديوان الحلاج، الطواسين، بستان المعرفة

**ثالثا: مذهب الحلاج في التصوف**

ثمة مسألتان رئيسيتان في فكر الحلاج، لا تخلو أي من أقواله أو أشعاره منهما، الأولى هي وحدة كل ما في الوجود، والثانية أن الطريقة الوحيدة لإدراك هذه الوحدة تتم عبر إفناء "الأنا" أو "الذات" الفردية في "الأنا" أو "الذات" الكلية، أو حسب مصطلح الحلاج "استهلاك ناسوتية الإنسان في لاهوتية الله".

فالحلاج يرى أن ثمة "واحدا" فقط في الوجود ولا شيء سواه، وهو الله، وأن جميع الموجودات هي تعبيرات عن هذا "الواحد"، مثل أشعة الشمس رغم تعددها فإن مصدرها واحد. ورغم أن مصدر كل شعاع هو الشمس لكن هذه الأشعة لا تقوم مقام الشمس، وهي ليست مساوية لها، كما أنها ليست "مماسة أو ممازجة لها".

حواسنا، بما في ذلك العقل، تتعامل خطأ مع تلك الموجودات باعتبارها موجودات منفصلة وقائمة بذاتها، بينما يرى الحلاج أن ذلك مجرد وهم ناجم عن قصورنا في إدراك الحقيقة والتي يقسمها إلى ثلاثة مستويات: "ضوء المصباح علم الحقيقة، وحرارته حقيقة الحقيقة، والوصول إليه حق الحقيقة".

سأل أحدهم الحلاج: "كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: الطريق بين اثنين وليس مع الله أحد".

وهو يقصد بذلك أن الله موجود في كل مكان، ولا يوجد طريق للوصول إليه، لأن الطريق يقتضي وجود اثنين وليس مع الله أحد. ولكن يمكن إدراك الله مع ذلك من خلال النظر إلى سائر المخلوقات، كما يقول "النقطة أصل كل خط، والخط كله نقط مجتمعة. فلا غنى للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف فهو متحرك عن النقطة بعينها. وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين. وهذا دليل على تجلي الحق من كل ما يشاهد وترائيه عن كل ما يعاين. ومن هذا قلت: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه".

وشكلت رغبته في الانعتاق من ربقة الجسد والسماح لروحه بالانطلاق مجددا، هاجسا دائما لدى الحلاج، وكانت شديدة إلى درجة أنه لم يمانع في قتله، بل كان يستفز الناس للإقدام على ذلك. فكان يصرح بآراء يعرف بأن ظاهرها يستفز العامة، رغم أن باطنها مختلف تماما.

ومن ذلك قوله "أنا الحق"، ففي الظاهر يفهم منها أنه يدعي الألوهية لنفسه، لكن الحقيقة أنها كانت محاولة منه لنفي نفسه وإثبات وجود الله. ففي اللغة العربية أو أية لغة أخرى، لا نستطيع أن نذكر الله من دون أن نقع في ثنائية "القائل" و"المخاطب".

فدائما هناك "أنا" و"هو"، بينما هناك "واحد" فقط.

الطريقة الوحيدة لتجاوز ذلك هي فناء الذات في الله، مثلما تعود القطرة إلى الماء. وبهذا المعنى كانت مقولة "أنا الحق" هي الطريقة الوحيدة للإشارة إلى الله من دون الوقوع في الثنائية أو "الشرك".

وبحسب معاصريه فقد كان متشوقا للحظة الخلاص التي طالما أرادها وتنبأ بها منذ فترة طويلة. وفي اليوم الذي قتل فيه ضحك كثيرا ودمعت عيناه، ومما قاله: "هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك وتقربا إليك. فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت. فلك الحمد في ما تفعل ولك الحمد في ما تريد".

**رابعا: الشك في عقيدة الحلاج**

تبدأ قصة الحلاج عندَ بعض أقوالِه التي أثارت شكوكَ الناس حول عقيدتِه، فقد نُسبَ إليه الكثير من الأقوال التي كفَّرهُ كثير من العلماء عليها، حيثُ يُنسَبُ له قوله: "إنَّ الإنسان إذا أراد الحج، أفرد في داره بيتًا، وطاف به أيام الموسم، ثم جمع ثلاثين يتيمًا، وكساهم قميصًا قميصًا، وعمل لهم طعامًا طيبًا، فأطعمَهم وخدمهم وكساهم، وأعطى لكل واحدٍ سبعة دراهم أو ثلاثة، فإذا فعل ذلك، قام له ذلك مقام الحجّ"، وقال أيضًا: "أنا الحق والحق أنا"، وله بعض الأشعار التي كفَّره عليها كثير من الفقهاء وأهل العلم في ذلك العصر كقوله الذي يؤكدُ فيه على إيمانه بالحلول والاتحاد:

سبحانَ مـَن أظهرَ ناسوتَهُ          سـرَّ سنا لاهوتهِ الثاقـــب

ثمّ بَدا في خلقـِه ظاهرًا            في صورة الآكلِ والشارب

ويقول أيضًا في موضعٍ آخر مبيِّنًا أنَّه يعتقد بجميع المعتقدات الأخرى:

عَقَدَ الخلائقُ في الإلهِ عقائدًا       وأنا اعتقدتُ جميعَ ما اعتقدوه

وفي الحقيقة يعدُّ الحلاج من أشهر المتصوّفين في الإسلام، فقد اتَّخذ التصوف طريقةً جهاديَّةً في سبيل نُصرةِ الحق وأهله، ولم يكُن التصوف في نظره مسلكًا تعبديًا فرديًا، فقد طور الحلاج هذه النظرة للتصوف وجعله ثورةً ضدَّ الطغيان والفساد والظلم في المجتمع وفي النفس في آنٍ واحد، فقد نشأ الحلاج في واسط ثمَّ في بغداد وتكررت زياراته إلى مكة المكرمة، حيثُ كان يعتكفُ هناك مظهرًا التّجلُّدَ والصبرَ على الشدائد والمكاره والمصاعب من جوع وعطش وحرارة الشمس أو البرد كما كان يفعل المتصوّفة عن الزرادشتيين، وقد زارَ بعد ذلك كثيرًا من بلدان العالم الإسلامي يدعو الناس على طريقته الخاصّة، وكان يُرى أحيانًا بهيئة الفقير الزاهد وتارةً بهيئة الغنيّ الثريّ وتارةً بهيئة العامل، وبذلك صار له الكثير من الأتباع.

وكان يرى المؤرّخون أنَّه كان يتلون مع كل طائفة لكي يستميلَ قلوب الناس، فيكونُ مع كل طائفةٍ على مذهبها إن كانت من أهل السنة أو الشيعة أو المعتزلة أو الصوفية ، فالتصوف عند الحلاج كان باتجاهين: اتجاه مع الخالق لدرجة الفناء في حبه، واتجاه مع الخلق يجاهد فيه ضدّ الظلم والطغيان والفساد ويدعو الناس إلى مائدة الحب، ويروى أنَّه قال ذات مرة: "النقطة أصل كلّ خط، والخط كلّه نقط مجتمعة، فلا غنى للخطّ عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط، وكل خط مستقيم أو منحرف فهو متحرك عن النقطة بعينها، وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين، وهذا دليل على تجلِّي الحق من كل ما يشاهد وترائيه عن كل ما يعاين، ومن هذا قلت: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ اللهَ فيه"، فهو إلى صوفيَّته كان يؤمنُ بوحدة الوجود ويؤمنُ بالحلول والاتّحاد أي أنَّ الله يَحلُّ في خلقِه.